صحيفة أدب وأخبار

عطفة القاياتى

للأستاذ حسن القاياتى

عطفة القاياتى فيما نتشهى ونتوسل ، و « عطفة الألايلى » فيما تسمى ولا نحب ، تلك عطفتنا العتيدة ، قاعة حيث يحتضنها « باب زويلة » عند ملتقاه بالسكرية ، فهى على يُسرى المقبل من حى الحسين بن على ، الذاهب إلى « باب زويلة »

عن يسارى إذا دخلت من البا ب وإن كنت خارجاً عن يمينى

تلك « عطفة الألابلى » فى بُهرتها دارنا القديمة الصغيرة «دار القاياتى»: مسلك ضنك مُلتوٍ كجرى النفس وجحر الأفعى؛ أشدُّ من عرين الليث ظلمة ورهبة، وأضيق مسلكا من لهاة الليث

يتصدر العطفة ربع قديم عادى البنية ، ترحل عنه أهلوه من قدمه وخلوقته فهو خلاء قفر قام حرباً على المجتازين خشية التزلزل والتهادى .

أجل أيها الربع الذى خف أهله لقد بلغت فيك النوى ما تحاوله

ربع معطل خلاء، عُطِّل من الغيد والصباحة ، لا يطل اليوم من شرفاته ولا نوافذه الحسن ، ولا تشرف كعهدها رَبّات الدّل. فنوافذه الخالية الساجية كالعيون الثاكلة المفجعة لا يشرف منها الحب ولا تطّلع الفتنة

يناوح هذا الربع المعطل بيت واهن متهالك ، طالما تهدم وابتنى، وابتنى فتهدم، أحوالاً وأقانين حتى انتسخ البيت الأصيل وأُعيد خلقاً آخر بالترقيع، فهو البيت وليس هو البيت كما قيل فى طيلسان ابن حرب :

بقى الرفو وانقضى الطيلسان ، لكثرة عرضه على الرفو والرقاء

يُسلم عطفتنا هذا الربع إلى ربع ثان يساويه أعرق منه فى البلى والخلاقة يملك حيزها الأكبر؛ شهدت بالأمس قُطّانه من الطبقة الدنيا المبتئسة يترحلون عنه خشية التداعى ويتناشدون بكاء على العطفة أو بكاء على الربع وعطفه

ما ربع ميّة معموراً يطيف به غيلان أبهى رباً من ربعها الخرب

ثم تتسلسل يمنة ويسرة منازل العطفة بعد هذين الربعين بيتاً بيتاً فتتشاكل هى كما تشاكل أهلوها وُهناً وضعة . وناهيك ساكنو الربوع حتى تشافه بيتنا الصغير فإذا هو معها كما قيل للعبادى : أى حاريك شر ؟ قال : هذا ثم هذا . تشابهت هذه البيوت فى الرثاثة والزراية حتى لتحسبها من التشابه بيتا واحداً مردد الصورة ، أو تحسب كل بيت منها إيطاء مع جاره وصاحبه، وليس فى الحارة كلها بيت للقصيد

على هذا الذى نصف تمضى فتتصل الطليمة الأولى من حارتنا حتى تفضى إلى منزل قائم تبلغك هذه الكلمة حديثاً عنه : منزل يتصدر كأنما تختتم به العطفة أو تُسد ، ولكنها تستمر فتطّرد بعده ؛ بيد أنها تنشعب إلى شعبتين ، تأخذ إحداهما ذات اليمين والثانية ذات الشمال كما تبسط ذراعيك للعناق !

تبارك الله ما أشرف وأنبل ! ما شهدنا كهذه العطفة عطفة زهراء سامية ولا قطان عطفة جُلهم بل كلهم من الطبقة الدنيا المتواضعة الوادعة ، «إسكاف» إلى جانب « كناس »، و «نجار» لدى « أديب » ، وما إلى هؤلاء . أجل ، لقد تنجب الحارات ولا كمن أنجبت حارتنا من « عزام » الإسكاف و « موسى » الزّبال و « كريمة » النجار و « السيد » الشاعر

وما شر الثلاثة أمّ عمرو بصاحبك الذى لا تصبحينا

تلك حلية السكان فى عطفتنا . ألست تشهدهم أيها القارئ ملء النفس ، فكيف ظنك بزميلك الشاعر الفحل وقد خرج على هذا الملأ فى وجاهته وزينته؟ أليس يزدهيك منه أنه أظهر أهل الحى نبلاً وأبينهم وجاهة ؟

لم أر شيئاً حسناً منذ دخلت اليمنا
فيا شقاء بلدة أجل من فيها أنا

ليس هذا وحده مما يشق على النفس والبصر فقد انتحى قاصية من العطفة حمام عتيق ومستوقد حمام سالت عليهما (الصحة) عجلات ومركبات تحمل القمامة ذهابا وجيئة ، حتى إذا التقت مركب فى مسالكها بمركب غصت بهما حلاقم العطفة وسدّ متنفس الطريق فقل فى حبسة بل غصة صادعة كغصة الماء لا يسيغها الماء !

لو بغير الماء حلقى شرق كنت كالغصان بالماء اعتصاري

إذا راح سدنة حمامنا أو اغتدوا عليه يحملون قدور « الفول المدمس » المنتفخة السوداء فقل فى أشباه الحلاليف تحمل الحلاليف ! !

أنا ابن الذي لا تنزل الدهر قدرُه وإن نزلت يوماً فسوف تعود
ترى الناس أفواجاً إلى ضوء ناره فمنهم قيام حولها وقعود

على أننا وإن تناولنا قدور « الفول المدمس » بهذه الدعابة فما نتعمد لها فضيلة ولا نغض من قدر ، تلك أسوة البائسين بالسراة ومائدة المفلوكين معاً والمالكين ، على حالة من المدنية شحيحة مناعة ليس لنا فيها طعام ابن جدعان ولا جفنة آل المحلق نفى الذم عن آل المحلق جفنة كجابيةِ السَّيْحِ العراق تفهَقُ

لقد رمتنا هذه الحضارة والمدنية بمأدبات ومطاعم باخلة جُلّ ما تتسمح به قدور وصحاف قدّرتها الصناعة تقديراً فهى دقيقة زهراء كالدراهم والدنانير ، غالية كأنما تطبخ فيها الدراهم والدنانير :

رأيت قدور الناس سوداً من الصّلَى
وقدر الرقاشيين زهراء كالبدر
إذا ما تنادوا للرحيل سمى بها أمامهم الحولىُّ من ولد الذر

يعصف بنا مستوقد الحمام عصفته ويهب إعصاره ، فحسبك أن تتعرف أن الله إنما أجرى الهواء طلْقاً ليشتمّه الناس غيرنا نسيما عليلا وحياة ولا تتجرعه نحن إلا حرقة أو غلة ، فهو زفرة حرّى أو تنهد . طالما أظلتنا غاشية كثيفة هوجاء من دخان هذا المستوقد بل جبل النار يظلم لها يومنا الطلق الأضْحيان حتى ليخيل إلينا أن يومناقد رغب عن لونه الأبيض الوضاح ، أو كأنما صيغت لنا خاصة شمس سوداء تقدُّ من أديم الليل ! !

أما وقع العجلات من مركبات (الصحة) زائرات المستوقد لا فى الفينات والفترات بل فى اليوم الأطول والليل الأليل فإنما يكون على أشده إذا تحين الأديب لخواطره الشعرية ساعة من فترة الأحياء وهدأة الحياة ! !

يميناً لقد عشت هذا الزمن الحفيل لا أتفهم كلة المرى في شعر « ابن هانئ الأندلسى » حيث يقول : « ما أشبه شعر ابن هانئ إلا برحى تطحن القرون » حتى إذا رصفت عطفتنا بالحجر وتخطرت عليها مركبات الصحة ، أيقنت أننا نحن فى مطحن للقرون

هذا بعد أن رصفت العطفة بالحجر ، أما قبل ذلك فقد كانت تستهل علينا السماء فى الشتوة شآبيب كأنما تخرقت بها السماء حتى تتوحل الأرض فأكثر مشية السكان إذ ذاك مشية المقيد فى الوحل

علىّ وإلا ما بكاه الغمائم وفىّ وإلا فيم نُوحُ الحمائم ؟

حمام السكرية وناهيك : حمام صحب الزمن حتى تحدث به التاريخ وظل ماثلا حتى زرناه ، انقسم بنصفين فهو حمامان ، قسم للجنس النشيط له باب من السكرية ، وقسم للجنس اللطيف — الداخلة إليه من عطفتنا ؛ بيد أن شطره الجميل قد عطل عندنا من العمل فعطل الحي من الحسن

كانت تبتكر إلى حمام السكرية هذا أسراب من النيد الفواتن بل زهرات الصباحة من كل رشيقة القد نفانة العينين بالسحر ، فيلتقى لأجلهن عنده فصائل من عَبَدة الحسن رواد الغزل قوامها شباب من الطبقة الدنيا ، فاشاء الحسن ، لا ، بل ماشاء الفحش من كلمة غزل حارة أو قالة عوراء إلى نظرة خائنة أو تجميشة باليد ، ثم ما شاء الشغب والفتنة من تهاتر وإلحاد في الحسن . فكم صريع هناك فى معترك الغزل والجدل بأعين الفتيات الساحرات وأيدى — « الفتوات »

فتية تلك للشغب والشر خليقة بهذه الكلمة الفكهة من زميلنا الأديب الأستاذ على شوق قال :

« وملطمين » على الطريق تراهم يتحرشون برائح أو غادى
فئة تقول لها إذا حييتها : يا معشر السفهاء والأوغاد

إن للغزل فى مصر كلها مغانى ومواقف غراء مشهورة ، منها حمام السكرية . فان عد العرب من مغانى صباباتهم ومآلف غزلهم بانة الوعساء والرقمتين ، عددنا الحملين وبين النهدين ، أو تذاكروا « نجدا » « وسفح زرود » ، فخرنا « بالمحمدى » و « أبى السعود » ، —

أفدى ظباء فلاة ما عرفن بها
مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب
ولا برزن من الحمام مائلة أوراكهن صقيلات العراقيب
حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفى البداوة حسن غير مجلوب

لم يكن للعطفة فيما سلف عهد بالنور فكانت الحوذية والمكارون يربطون حميرهم ومركباتهم في جَنْبَتَيْها ، فاذا أقبل الداخل إلى أهله فى الظلمة لم يرعه إلا صدمة من مركبة مسندة أو رمحة من حمار مرتبط

أنا أعمي وصاحب القوم أعمى فدعونا في ظلمة نتصادم

فاذا هو داعي الجبين ، داعي الفؤاد من شجى ولوعة

لايسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

زَيّن لنا هذا بل زين لنا حسن الجِدّ ولا نكذب الله، أن نكتب إلى ولاة الأمر في طلب النور ، وتمى إلينا حديث ذلك الكاتب الكبير الذي طلب إليه أن يكتب رسالة إلى ولىّ أمر في طلب النور للمساجد فارتج عليه ولم يدر كيف يكتب ، فبينما هو نائم جاءه إبليس فقال له أكتب : إن في النور أنساً للسابلة ونفياً للريب والوحشة عن بيوت الله . فبدا لنا أن نساجل هذا الكاتب ونساير أسلوبه هذا في استجداء النور لمطفئتنا وبيوتنا لا لبيت الله ، وهممنا بأن أكتب هذه الكلمة على طرازه الابليسي؛ بيد أننى قَنَيْت الحياء فلم أكتب وليتني كتبت :

أيتها الوزارة الأريحية :

نحن أهل « عطفة الألايلى » في ظلمة مطبقة ، المشتكى إلى الله منها ثم إليك ، فهل أنت متسمحة فمحسنة إلينا بخطرة من النور ولمحة من الضوء فان في النور تنويهاً بمواقف الغزل عندنا والصبابة، وأنساً لمآلف الصبوة، وهداية لواقع القبلات والنظرات فلا يجمل أن يسلم الجمال ومناغاته إلى الظلمة وحيرة الموقف وإلى مثل كلمة الشاعر :

وبان بارق ذاك الثغر يوضح لى مواقع اللثم في داج من الظلم

على أن في النور عدا هاتيك الخلال النذير، من رمح الحير ، والنجاة من المركبات .

فلما استجابت الوزارة لهذه الضراعة والتخشع بعد أن كتبنا إليها — ولكن في غير هذه اللغة — استجابت لنا بمصباحين ضئيلين فارى اللمح باهتي اللون كان العهد بالنور قبلهما أن تتحلل الظلمة تحته ، ولكنه نور افتر من « بارق ذاك الثغر » يتحلل تحت الظلمة

أما صرعى الكلاب والهررة الأليفة المفدّاة وما إليها من الفيران وبنات عرس فما تطوى لها جثة من جنبات العطفة وأقطارها ولا تكتم رائحة وإنما تحشر في بطون الهوام والطير وتصعد معها أرواح الساكنين من صرعى الجرائم والعلل

ستعبرني الطير كيلا أكون سواءً وأمواتهم في الرجم

ليست صناديق القمامة التي ترصدها الوزارة في الطرقات والميادين إلا صورة كاذبة مختالة للنظافة كأنما تدفع بها عن العاصمة معرة النقص من القادرين أو تكف بها لدغة العيون والحدَق على فرط القذر والدمامة ، كما تعلق تميمة القروية البلهاء الفريرة على محيّا وليدتها الدميمة خيفة العين

ليس لدينا شيء معجب بحمد الله بل كل ما تباشره العين مما يشق على النفس والبصر ، سوي مدرسة أولية وسبيل أثرى تحت المدرسة يتصدران العطفة . أما المدرسة فتحمل إلينا من ذكر العلم والتربية مايندى على الكبد الحرّى برداً وروحا ؛ وأما السبيل فان يكن عطل آنفاً حتى ما يبض بقطرة ماء في طاعة المدنية والوقاية فهو يذكرنا بإحسان أسلافنا الأولين وبرّهم كالحيا الفاتن شيّع عهد الصبا والفتنة وغيض منه ماء الحسن ربما أذكرك بتقاسيمه أيام كان يشرق بماء الحسن والفتنة

تبتكر الشمس فيبتكر معها قطعان من الباعة والصناع من صائح بالبامية والقلقاس ، إلى مبيض النحاس ، فينعقون بسلعهم المتعارفة تناهق الحمر فيمنعون القائلة الشهية يومهم الأطول، حتى إذا تمشت الشمس إلى المغيب ، خلفتهم فصائل أخرى من الطراز الساخر تدق الدفوف، وتضرب بالكفوف ، ثم تتغنى بكل ماتتغنى به الإذاعة العامة ، فهم إذاعة متنقلة ليس يدرى المستمع إليهم : أباعة هم يتغنون ، أم مغنون يبيعون ؟ !

طال ليلى وبتُّ كالمجنون واعترتنى الهموم بالماطرون

هذا بعض ما نلقى في عطفتنا وفي دارنا ، إلى أطفال من نشء الغوغاء والسوقيين، لهم عدة التراب كثرة، في خسة التراب، مباءة أمراض، ومسيل أقذار، وخريجو شغب ولقة، ونبت تشرد وجهل ، كأنما عوض أهلوهم بكثرتهم ما افتقدوا من عزة العلم والجلال

يا فراخ المزابل ونتاج الأراذل

إسمعوا لا سمعتمو غير زور وباطل

نشء من الغوغاء لهم على ضؤولة الجرائيم فتك الجرائيم ، تفتك بالعلات ويفتكون بالعلات والجهالات

أليست هذه الطفولة العابثة اللاهية هي الطفولة العاطلة المتشردة حذوك النعل بالنعل ؟ وإذا كان يجمل بالدولة أن تحمل نشء الأمة على العلم والثقافة بسيف الاكراه القانوني فليس بمستنكر عليها أن تحمل هذا النشء على حذق الصناعات والفنون بالاكراه القانوني ، ولئن كان العلم سبيل العيش والحياة ، فإن الصناعات والعمل عيش وحياة

(البقية في العدد القادم)

مصطفى القاياتي